

المشيخة الصوفية عند أتباع الجزولي:

قراءة في الشروط والضوابط من خلال مخطوط بن عطية

عبد الله استينيتو

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة ابن زهر - أكادير

تقديم:

ظل التصوف الإسلامي حقلا معرفيا غنيا بمحتوياته ومضامينه، ثريا برجالاته ورموزه، وساهم في إغناء الحضارة العربية الإسلامية بجملة من التصورات والأفكار والنظريات، تولد عنها جدل كبير في الأوساط الفكرية الإسلامية، وخاصة بعدما اتسعت الرقعة الإسلامية، ودخل أقوام كثر في الدين الجديد حاملين معهم عاداتهم وأفكارهم وتقاليدهم ومرجعياتهم الثقافية والعلمية، وما حوته من ملل ونحل تراوحت ما بين المخلقات الوثنية واليهودية والنصرانية. وازداد هذا الوضع ارتجاجا خلال القرن الثاني للهجرة غداة ظهور الفرق الإسلامية وانتشار الفكر الشيعي في ربوع الدولة العباسية، مما جعل الحقل الديني الإسلامي يتأثر بشكل كبير بهذه التحولات، فظهرت فلسفة التصوف الإسلامي التي تبحث في أمور غيبية ومقولات ميتافيزيقية كبرى مستفيدة من حركة التدوين والكتابة التي كانت قد انطلقت منذ الخلفاء الراشدين، وقطعت شوطا كبيرا من حيث المناهج المتبعة والضوابط المحددة، ولا سيما فيما يتعلق بتدوين القرآن الكريم وجمع الأحاديث النبوية، وهو ما أعطى انطلاقة قوية لعلوم أخرى استفادت من المعالم الأولى في قواعد الكتابة والتدوين لدى العرب المسلمين، ومن هذه العلوم نجد علم التصوف بكل حمولاته ومستوياته، والذي نال حظا أوفى من التأليف والتدوين من حيث مضامينه وأعلامه، وأصبحت الكتابة حول رموزه ومحتوياته تتسم بنوع من التتميط والمحاكاة في إطار ما يعرف بالسلاسل الصوفية التي قدمت نفسها كصناعة محترفة من قبل ممارسيها غطت العالم الإسلامي

عامة، والمغرب خاصة؛ فأبدع المغاربة في هذا الحقل غاية الإبداع، واستطاع أهل الصوفية المغاربة أن يشكلوا سلاسل مسندة ومعننة تفوق مثيلاتها في المشرق من حيث أفعالها وحلقاتها التي يمثلها مشاهير الصوفية الذين تتفاوت منزلاتهم ومستوياتهم انطلاقاً من التلاميذ والمريدين والساكنين والتابع، ومروراً بالشيوخ والعارفين، وصولاً إلى الأغواث والأجراس والأقطاب.

فكانت كل حلقة من هذه السلسلة تخضع لشروط وضوابط معرفية ومنهجية، ومحددات روحية وخلقية يضعها أهل التربية والسلوك، ويحرصون على بناء صرحها جيلاً بعد جيل، إلى أن أصبح ذلك صنعة واضحة المعالم، بيئة الجوانب، لها فعلتها ومحترفوها يتقنون في إتقانها والإبداع فيها، وفق نسيج ثلاثي الألوان يجمع ما بين الشيخ والمريد والطريقة المتبعة، كما سنوضح ذلك انطلاقاً من سلسلة أحد أتباع الشيخ محمد بن سليمان الجزولي، وهو ابن عطية.

1. التعريف بسلسلة بن عطية

هذه السلسلة هي عبارة عن مخطوط بعنوان "سلسلة الأنوار في طريق السادات الصوفية الأخيار" من تأليف أحمد بن محمد بن الولي الصالح أبي عبد الله سيدي محمد بن عطية السلاوي الأصل، الأندلسي النسب، الفاسي الدار والمزار¹، عاش خلال القرن السابع عشر، وعاصر أبا الحسن علي اليوسي، وقد عرف بنفسه وانتمائه إلى الطريقة التباعية الجزولية الشاذلية من خلال شيوخه الذين تتلمذ عليهم، بدءاً بأبيه، ثم جده ابن عطية، ومروراً بـ "الولي الصالح الناسك إمام الطريقة، الجامع بين الشريعة والحقيقة العلامة البركة أبو عبد الله سيدي محمد بن عطية السلوي الأندلسي

1- لم يدل المؤلف بتاريخ انتهائه من هذا الكتاب؛ لكنه يشير في أكثر من مرة إلى كونه عاشراً أبا الحسن علي اليوسي وغيره، مما يعني أنه من أهل القرن السابع عشر. أما جده ابن عطية فيقول عنه إنه كان مجتهداً في النسخ والقراءة ومجالس العلم والتدريس، إلى أن تفضل الله عليه بفضلته، فمكثه (أي الجدة) من صحبة الشيخ العارف بالله الرباني سيدي أبي الحسن علي الحارثي الشياضمي نسباً، الفاسي الدار والمزار، فاستمر في مجالسته من عام تسع وثمانين وتسعمائة إلى أن توفي سنة أربعة وألف (الموافق 1595م). المخطوط ص. 64.

الفاسي الدار والمزار دفين الرميلة عدوة فاس الأندلس¹، عن شيخه أبي الحسن علي الحارثي الشبضمي نسباً الفاسي الدار والمزار، توفي رضي الله عنه يوم الأحد سادس جمادى الثانية سنة أربع وألف، عن شيخه سيدي أبي العباس أحمد بن موسى بن موسى السوسي الدار والمزار دفين يليغ من سوس، عن شيخه القطب أبي فارس سيدي عبد العزيز التباع دفين مراكش توفي سنة أربعة عشر وتسعمائة، عن شيخه القطب الجامع الشهير أبي عبد الله سيدي محمد بن سليمان الجزولي الشريف الحسني صاحب دلائل الخيرات، توفي رضي الله عنه سنة ستة وسبعين وثمانمائة، عن شيخه القطب أبي عبد الله سيدي محمد أمغار دفين تط من بلاد أزموور، عن شيخه القطب سيدي أبي عثمان الهرتتاني المدعو الهنتاتي²، وبها شهر عن شيخه القطب أبي زيد سيدي عبد الرحمان الرجزاجي دفين مراكش شيشاوة بغرب مراكش، عن شيخه القطب سيدي أبي الفضل الهندي، عن شيخه القطب سيدي عنوس البدوي عن شيخه القطب الجامع سيدي أبي الحسن علي القرافي صاحب القرافة عن شيخه القطب سيدي عبد الله المغربي³، عن شيخه القطب الشهير الشريف الحسني سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه توفي سنة ستة وخمسين وستمائة، عن شيخه القطب الغوث الشريف الحسني مولانا عبد السلام بن مشيش توفي رضي الله عنه بضعة وعشرين وستمائة ودفن بجبل العلام من قبيلة بني عروس، وبها شهر⁴.

1- علق الناسخ على هذه الحدث، وحدد تاريخ وفاة الشيخ ابن عطية في سنة اثنين وخمسين وألف [الموافق لـ 1642 م].
2- يحمل المخطوط تعليقا يشير إلى كون الهنتاتي أخذ الطريقة "عن شيخه ووالده أبي عبد الله سيدي محمد المغربي، عن سيدي داود الباقي، عن تاج الدين بن عطاء الله، عن سيدي أبي العباس المرسي، عن الشيخ أبي الحسن علي الشاذلي". نفسه، تعليق، ص. 56.

3- يتضمن المخطوط تعليقا يحيل على رواية أخرى بالنسبة إلى مشايخ المغربي، جاء فيها: "أن سيدي عبد الله المغربي يأخذ عن شيخه سيدي ابن عطاء الله، عن سيدي أبي العباس المرسي، عن سيدي أبي الحسن الشاذلي، هكذا وجدتها في بعض النسخ والله أعلم"، نفسه، ص. 5.

4- أورد الناسخ تعليقا عن نسب الشيخ عبد السلام بن مشيش، جاء فيه: "وأما نسبه رضي الله عنه، وهو عبد السلام بن مشيش، بن أبي بكر، بن علي، بن حرمة، بن عيسى، بن سلام، وكان اسمه سليمان، وهو أول من سكن جبل العلام، بن مزور، بن حيدرة، بن محمد، بن إدريس، بن إدريس، بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن بن علي، بن أبي طالب رضي الله عنهم" تعليق، ص. 57.

هذا المؤلف يعد من المخطوطات النادرة النفيسة التي كانت تدخل في عداد التآليف الغميسة والمفقودة بسبب عدم عثور الباحثين عليها، والوصول إليها؛ بل ظلت مجهولة وغير معروفة، تتم الإشارة إليها بهذه الصفة "مفقود" دون أن تطاولها يد الدارسين والراسخين في علم التوثيق والتحقيق والبليوغرافيا. وبعد أن حالفنا الحظ في العثور عليها، ارتأينا أن نعرضها على الدارسين قصد إطلاعهم عليها منهاجا ومضمونا، بصفتها نموذجا مثاليا لكتابة السلاسل الصوفية¹.

2. منهج صاحب المخطوط

يظهر من القراءة الأولية لهذا المخطوط أن صاحبه كان من أهل العلم والتأليف؛ نظرا إلى كعبه العالية في الجوانب المنهجية؛ بحيث نجده ملتزما تمام الالتزام بقواعد الكتابة والتدوين، وذلك بتحلية مؤلفه بمقدمة مختصرة ودقيقة، مبرزاً فيها الدوافع والأسباب التي جعلته يخوض في هذا الموضوع الشائك والمعقد، في إطار رؤية تأصيلية لإشكالية التصوف بكل أبعادها وخلفياتها، وفق منهج كرونولوجي تراتبي، يغوص في عالم التصوف، ويستقصي دروبه ومسالكه وطرقه، بالوقوف على أقطابه، وعرض شيوخه بأسانيد متصلة ومترابطة تنزل بهم إلى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، فيقول المؤلف في هذا السياق: "وبعد فإني لما رأيت سلسلة الطريقة التباعية المباركة الشاذلية وهي سلسلة الإرادة متصلة، معنعة بشيخ عن شيخ حتى إلى النبي

1- عثرنا على هذه النسخة من "سلسلة الأنوار في طريق السادات الصوفية الأخيار" في منطقة تافيلالت جنوب شرق المغرب، تم نسخها من قبل الفقيه عبد الله بن أبي بكر الغرقي المصيفي نسبة إلى قصر أمصيفي أحد قصور منطقة الغرفة؛ مثل أسريغين وأولاد عبد الرحمان والماطي وغيره. هذه النسخة تتكون من 341 صفحة من الحجم الكبير، مكتوبة بخط مغربي فيلالي أصيل وجميل، مقروء وواضح، لا تتخلله بياضات ولا آثار للأرضة؛ ومما زاد من جماله أن عناوين أبواب الكتاب وفصوله ناهيك عن أسماء الله الحسنى وأسماء النبي عليه السلام مكتوبة بمداد مذهب، ناصع اللمعان، فيه الكثير من الجاذبية والإثارة. كل صفحة تتكون من 19 سطرا، وكل سطر يتضمن من 10 إلى 12 كلمة. وحسب الرواية التي أفادتنا بها الأسرة المالكة للمخطوط، فإن هذا المؤلف كان قد بيع لأحد سماسرة المخطوطات في تافيلالت الذين يشتغلون لصالح الأجانب؛ لكن السمسار لم يف بالمبلغ الكامل المتفق عليه مع البائع، فتدخلت هذه الأسرة وضغطت على مالكة ليسترده، فاشتترته بالثمن المطلوب؛ مما جعله يبقى محفوظا في تافيلالت، عكس مخطوطات أخرى كثيرة ونفيسة التي هُربت إلى الخارج نحو الدول الغربية والخليجية. وبعد ما استمررنا في البحث في هذا الموضوع عثرنا على نسخة أخرى من هذا المخطوط في الخزنة الوطنية بالرباط تحت رقم 2458 د، وعدد أوراقها 105 ورقة؛ إلا أنها صعبة القراءة، نظرا إلى رداءة خطها، وبفعل الخروم التي تتخللها.

صلى الله عليه وسلم، مع السلسلة اليوسفية المباركة الزروقية وهي طريقة الأسماء مروية مأخوذة خلفا عن سلف حتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأردت جمعهم بقصد التبرك بهم والمحبة في جانبهم¹؛ بل كان الهدف الأسمى من إنجاز هذا العمل وضع دليل واضح المعالم للسالكين والعارفين يتأسى شكلا ومضمونا بالمصنفات وكتب الرجال والطبقات التي سبقته مثل "تحفة أهل الصديقية بأسانيد الطائفة الجزولية والزروقية" لأبي عيسى محمد المهدي بن أحمد بن علي الفاسي²، و"الترجمان المغرب عن أشهر فروع الشاذلية في المغرب" لعبد الحفيظ بن محمد الطاهر الفاسي العمري³، و"السلسلة الزروقية" لأحمد زروق⁴، و"الطرفة في اختصار التحفة بأسانيد الطائفة الجزولية والزروقية" لمحمد العربي بن الطيب القادري الحسني⁵، و"المواهب القدسية في أسانيد بعض المشايخ الصوفية"⁶، و"عذب الموارد في رفع الأسانيد"⁷ و"كشف المحجوب لأرباب القلوب" للأفغاني أبي الحسن الهجويري الذي عاش في القرن 5هـ/11م⁸، و"التشوف إلى رجال التصوف" لابن الزييات التادلي الذي عاش في القرن 7 هـ/13م⁹، و"سبك المقال لفك العقال"¹⁰ لابن الطواح التونسي الذي عاش خلال القرن 8 هـ/14م، والذي عرض فيه جملة من أخبار الصوفية الأقطاب كالشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش، والشيخ أبي الحسن علي الغماري الشاذلي صاحب

1- نفسه، ص. 2.

2- مخطوط توجد نسخة منه في الخزانة الحسنية في الرباط بالمملكة المغربية، تحت رقم: 13420، ونسخة أخرى بالخزانة الوطنية بنفس المدينة، تحت رقم: 2990 ك. وعدد أوراقها 40 ورقة.

3- مخطوط توجد نسخة منه في الخزانة الحسنية في الرباط بالمملكة المغربية، تحت رقم: 3252.

4- مخطوط توجد نسخة منه في الخزانة الحسنية في الرباط بالمملكة المغربية، تحت رقم: 4354.

5- مخطوط توجد نسخة منه في الخزانة الحسنية في الرباط بالمملكة المغربية، تحت رقم: 10904.

6- مخطوط توجد نسخة منه في الخزانة الحسنية في الرباط بالمملكة المغربية، تحت رقم: 1032.

7- مخطوط توجد نسخة منه في الخزانة العامة في الرباط بالمملكة المغربية، تحت رقم: 1838 ك، ضمن مجموع، وعدد أوراقها 39 ورقة، مرتبة من 1 إلى 76. ومجموع هذه الأوراق هو 148 ورقة.

8- حول هذا الصوفي ونتاجه العلمي، انظر زكية (زوانات)، ابن مشيش شيخ الشاذلي، [ترجمه من الفرنسية إلى العربية أحمد التوفيق]، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2006. [419 ص.]. ص. 19، والهامش رقم 4 ص. 314.

9- ابن الزييات (التادلي)، التشوف إلى رجال التصوف، [قام بدراسته وتحقيقه أحمد التوفيق]، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1984.

10- ابن الطواح (التونسي)، سبك المقال لفك العقال، [قام بدراسته وتحقيقه جبران محمد مسعود]، درا الغرب الإسلامي، 1925.

الطريقة الشاذلية الشهيرة¹، و"دلائل الخيرات"² لأبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي الذي عاش في القرن 9هـ/15م³، واقتصر فيه على نظم مطول في الصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، على غرار ما كان معروفا من أنظام وأدعية على هذه الشاكلة؛ مثل دعاء سيدي عبد القادر الجيلاني المعروف بـ"حزب النصر" في بلاد الرافدين⁴، و"قصيدة البردة" للإمام سيدي محمد البوصيري الصنهاجي شيخ علماء الأسكندرية خلال القرن السابع الهجري⁵، و"الصلاة المشيشية" لمولاي عبد السلام بن مشيش دفين جبل العلام بمنطقة جبال شمال غرب المغرب الأقصى⁶، و"قصيدة

1- حول حياة الشاذلي وطريقته ومميزاتها والمرتكزات النظرية والعلمية والإجرائية التي تتبنى عليها، انظر، زكية زوانات، م.س.

2- أبو عبد الله محمد بن سليمان (الجزولي)، دلائل الخيرات، مطبعة دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004، صص. 3-156.

- عبد السلام (الغرميني)، دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار صلى الله عليه وسلم لسيدي أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي، ط. 2000، [بدون مكان الطبع]، صص. 34-192.

3- توفي الشيخ الجزولي في 16 ربيع الأول، سنة 870 هـ/1465م بأفوغال في سوس بالمغرب الأقصى، وهو ينحدر من قبيلة جزولة السوسية، وينتسب إلى السملالين المنحدرين من الشرفاء الحسنيين، درس في فاس، ثم انتقل إلى أسفي لتلقين طريقته إلى أتباعه ومريديه، وبعد وفاته ظلت رفاة بأفوغال لمدة 77 عاما قبل أن تنقل إلى عاصمة النخيل مدينة مراكش، ليدخل الجزولي في عداد الرجال السبعة للمدينة الحمراء. انظر عبد السلام (الغرميني)، دلائل، م.س. صص. 35-37.

4- هو أبو محمد عبد القادر الجيلاني بن موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وفاطمة آل بنت رسول الله (ص)، ازداد بإقليم جيلان عام 471 هـ، وانتقل إلى بغداد من أجل أخذ العلم والمعرفة وهو ابن الخامسة عشر ربيعا. ومن أهم شيوخه في بغداد أبو أحمد الدباس. عرف بالزهد والتصوف والذكر والوعظ واشتهرت طريقته بالطريقة القادرية، توفي رحمه الله عن سن تناهز التسعين حولا، عام 561 هـ ودفن بمدرسة بغداد، وترك عدة آثار علمية تصب في بحر الصوفية، ومنها دعاؤه المعروف بـ"حزب النصر" الذي يفتحه بقوله: "إلهي أسألك غمسة في بحر نور هيبك القاهرة الباهرة الظاهرة الباطنة القادرة المقتدرة حتى يتلأل وجهي بشعاعات من نور هيبك تحفظ عيون الحسدة والمردة والشياطين من الإثم والجن أجمعين[...]" نفسه، صص. 218-222.

5- ولد الإمام سيدي محمد البوصيري الصنهاجي المغربي أصلا وانتسابا، والمصري دارا ومزارا، بمصر عام 608 هـ/1211م، تلقى العلم على يد شيخه أبي العباس المرسي، واشتهر بحبه للرسول محمد (ص) فحلاه بقصائد عديدة؛ كالهيمية والمضرية والمحمدية؛ لكن أشهر قصيدة مدح بها النبي (ص) هي قصيدة الميمية التي عرفت بـ"قصيدة البردة" المكونة من 150 بيتا، مطلعها

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلّة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاطمة وأومض البرق في الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت أكفأ همتا وما لقلبك إن قلت استغرق بهم

هذه القصيدة أصبحت أشهر من نار على علم بين الشاربين من الحوض المحمدي من السالكين والعارفين: أهل الكرامات والصلاح والولاية. توفي الإمام البوصيري رحمه الله عام 696 هـ. نفسه، صص. 223-237.

6- هو عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي بن حرمة بن عيسى بن سلام بن مزوار بن علي حيدرة بن محمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله المهدي بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت الرسول

المنفرجة" لأبي الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي القيرواني¹، و"الدعاء الناصري" لأبي عبد الله سيدي امحمد بن محمد بن ناصر الدرعي²، وغيرها من التصانيف والتأليف التي وردت في حقل التصوف.

إذن، هذا هو المنهج الذي حاول مؤلف "سلسلة الأنوار" أن يتبعه اقتداء بأسلافه الذين سبقوه إلى الخوض في هذه الصنعة البديعة التي تتطلب من صانعها احترافية ومهنية عاليتين من أجل الغوص المطلوب للوصول إلى مرجان هذا اليم الذي يعد بمثابة أعز ما يطلب بالنسبة إلى السالك والعابد والمريد والشيخ صاحب القطبية الربانية والكرامات الإلهية.

يظهر أن هذا النوع من الصنعة في مجال الكتابة والتدوين له مرجعية ذات روافد يعسر حصر منابعها، أو عد مصادرهما، وإن كانت في الغالب تخرج من باب واحد هو التراث الفقهي الذي تم التععيد له في صدر الإسلام³، وما رشح عنه من اهتمامات تأثرت بمناهجه وطرق معالجته؛ بحيث يعن للناظر في كتابات السلاسل الصوفية لأول وهلة أنها لا تختلف في بنائها وتركيبها عن منهج علم الحديث من حيث المتن والعنونة والسند والإسناد والضبط والتثبت رواية ودراية⁴، سواء لدى

صلى الله عليه وسلم. قتل بن مشيش من قبل العامل الموحدى ابن أبى الطواجن عام 1227م/ 625 هـ. حول حياة هذا القطب الصوفى ينظر:

زكية (زوانات)، م.س. ص. 30.

1- تتلمذ ابن النحوي على يد الإمامين اللخمي والمازوري، درس في سجلماسة وفاس بالمغرب الأقصى، نظم هذه القصيدة على شاكلة "منفرجة أبي حامد الغزالي"، و"منفرجة أبي يحيى التازي". وقد اهتم بشرح هذه القصيدة عدد كبير من جهابذة المعرفة الصوفية وال منابع الروحية مثل أبى العباس الناقوسي الذي سمي شرحه لها بـ "الأنوار المنبلجة في بسط المنفرجة"، كما اشتغل عليها الشيخ زكريا الأنصاري وسمى شرحه بـ "الأضواء البهجة بشرح القصيدة المنفرجة". توفي ابن النحوي بقرية بني حماد بالمغرب الأوسط عام 513 هـ. انظر عبد السلام الغرميني، م.س. صص. 203-208.

2- ازداد سيدي امحمد بن ناصر بواوي درعة جنوب المغرب الأقصى، وتلقى علومه في مدينة فاس خلال القرن الحادي عشر الهجري، وتعلم على يد شيوخ مشاهير منهم الفقيه العلامة سيدي عبد القادر الفاسي، وانخرط في عالم التصوف الذي استبطنه بتلمذه على يد شيخه عبد الله بن حسين الركي الدرعي، فصار واحدا من أعلام التصوف في المغرب، وسميت طريقته بالطريقة الناصرية، وأخذ بها علماء مشاهير، مثل أبى الحسن علي اليوسي الذي حلى شيخه بن ناصر بدالية شهيرة تترجم حب المريد لشيخه. توفي الشيخ بن ناصر رحمه الله عام 1085 هـ. نفسه، ص. 197.

3- نور الدين (عتر)، منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر، دمشق، ط. 3، 1992، ص. 26.

4- حول هذه المفاهيم (الرواية، الدراية، السند، الإسناد، الحديث المتن، العنونة وغير ذلك)، انظر نور الدين عتر، م.س. ص. 32.

شيوخ مدرسة أهل المدينة؛ أو لدى شيوخ مدرسة أهل العراق في البصرة والكوفة، فهؤلاء قدموا المعالم الأولى لطبيعة الكتابة في العهد الإسلامي الأول، وأصلوا لكيفية التدوين بدعم من الجهات العليا الرسمية في الدولة الإسلامية¹؛ بهدف تحري الصدق والحقيقة، والوصول إلى مستوى معين من الموضوعية في مقاربة القضايا العلمية، والإجابة عن أسئلة الكتابة في بدايتها لدى المسلمين وما تقتضيه من حرص وعناية وبقطة؛ نظرا إلى حساسيتها، سيما عند بدء جمع الأحاديث النبوية وتدوين القرآن الكريم سواء مع محاولاتها الأولى في عهد الخلفاء الراشدين أو مع الخليفة عمر بن عبد العزيز؛ حيث ظهر جليا مدى خطورة الكتابة كأداة ذات حدين:

- أولا: الكتابة وسيلة لبناء الحضارة الإسلامية من خلال الحفاظ على نصوصها المقدسة، والإبقاء على طبيعتها الأصلية، مما يقوي روح العقيدة الإسلامية، وجوهر الرسالة المحمدية، ويبرز طبيعتها الأخلاقية، ووظيفتها الإنسانية السامية المبنية على قواعد نسقية منطقية وغير متناقضة.

- ثانيا: الكتابة وسيلة لهدم وتكسير أركان الحضارة الإسلامية الناشئة، وذلك عن طريق التحريف والتزوير اللذين يمكن أن يطاولا عمقها وروحها، بواسطة المس بمقدساتها، وعلى رأسها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وخاصة بعدما أصبحت هذه الحضارة تستقطب شعوبا وقبائل غير عربية، وصارت تفرض نفسها على مجالات جغرافية شاسعة؛ مما جعل قضية الشعوبية ومسألة اللحن والاختلاق واختراق لسان العرب، قضايا واقعية وموضوعية تستلزم كثيرا من الحزم من قبل أهل الحل والعقد، وأصحاب السلطة والقرار. وهكذا أصبحت مسألة الكتابة وما تطرحه من

1- حول مسألة الكتابة عند العرب المسلمين، وكيف تبلورت معالمها ومناهجها، وتأسست قواعدها وضوابطها سواء في علم الحديث أو في علم التاريخ والفلسفة والعلوم الأخرى. انظر، عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 2005.

أسئلة تخضع للرقابة، وتؤطر وفق تصور واضح مطبوع بالصرامة والجدية، تحول إلى منهجية معتادة ومعروفة لدى الباحثين والدارسين وأهل الصنائع.

3. المصادر المعتمدة في هذا المخطوط

يبدو أن حفيد ابن عطية كان ممن لهم حظ أوفى في معرفة مظان ومتون علم التصوف، والاحتكاك بمصادره ومنابعه التي أنتجها المشاركة والمغاربة وأهل الأندلس عربا ومستعربين؛ لذا نجده يشير إلى هذه النقطة عند تقديمه لعمله، قائلا: "وسميته سلسلة الأنوار في طريق السادات الصوفية الأخيار، واقتطفته من كتب عديدة، وجمعت فيه فوائد كثيرة، وحكما جلية معبرة من كتب الأئمة السالفين والعلماء الراسخين نظما ونثرا"¹. هذا التصريح يبدو أن له نسبة عالية من المصادقية؛ إذ قمنا بقراءة المخطوط قراءة رصينة ودقيقة لتسجيل كافة المصادر المعتمدة فيه، وتتبعنا نصوصه ومرجعيات مظانه ومتونه، فوجدنا فيه ثراء كبيرا، وتنوعا مثاليا، يبرزان الاطلاع الواسع لصاحبه على مختلف الروافد العلمية التي تصب في بحر التصوف الإسلامي؛ حيث جمع ما بين النصوص الدينية المستوحاة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وقصص الأنبياء والرسل الأولين، فاعتمد على أزيد من 150 آية قرآنية وما يماثلها من الأحاديث النبوية الشريفة موزعة على 15 بابا و 35 فصلا؛ وذلك لإعطاء الصنعة التصوفية سندا شرعيا، وجعل حال لسانها يقول: "صُنعت في الحقل الديني" بعيدا عن النعرات السياسية والمزاعم الكلامية، والتأويلات الفلسفية؛ مما يعني أن ابن عطية كان على دراية تامة بالجدل الكبير الذي طبع دوما حقل التصوف غداة التطورات التي طاولته، والتحولات التي مسته مبنى ومعنى، ولاسيما خلال القرن الثاني للهجرة: فانتقل مفهومه من التعبير عن الزهد الخالص المرتبط بالإنسان المسلم، المؤمن بالرسالة المحمدية تنظيرا وتنزيلا، إلى التعبير عن ضرب من النزوع الفلسفي الذي يبحث في الصفات الإلهية، ويتحدث عن مقامات علوية، ودوائر روحانية، انتهت بالقول بحقيقة

1- ابن عطية، م.س. ص. 2.

الكشف والفناء والجمع والاتحاد والحلول، ووحدة الوجود والشهود، والتأكيد على الوساطة ما بين الخالق والمخلوقات، فصار الشيخ همزة وصل بين المعبود والعباد، وخضعت المشيخة إلى ضوابط ومحددات، وجُعِلَ لها العديد من الأدوات والآليات، وبنيت على جملة من المنزلات والمستويات يعلوها الغوث أو القطب أو الجرس¹.

هذا التصور الجديد للتصوف بعد القرن الثاني الهجري والذي انطبع بطابع فلسفي صرف، وخرج عن مفهوم الزهد الخالص، تحكمت فيه عامل موضوعية وأحداث واقعية، منها اتساع الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية، ودخول أقوام شتى في العقيدة الجديدة ومعهم حمولاتهم الفكرية وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية²، كما أن الانقسامات الطائفية التي شهدتها المجتمع الإسلامي أسهمت بقسط وافر في هذا المنحى الجديد للتصوف، وخاصة بعد ظهور فرق المتكلمة والمعتزلة، وانتشار الفكر الشيعي في العالم الإسلامي بمفاهيمه الدينية وحمولاته السياسية، فكان لزاما على التصوف أن يتحول إلى علم الباطن، وتتسم سلوكيات ممارسيه بقدر كبير من الغموض والإبهام، متأثرة بالمذاهب الأجنبية اليهودية والنصرانية والوثنية والمجوسية والفلسفة اليونانية والإغريقية والفارسية³؛ الشيء الذي جعل الجهاز الفقهي يتحرك بكل أدواته وآلياته للتصدي إلى الظاهرة الجديدة بالتنسيق مع السلطة السياسية في الدولة العباسية، من أجل ردع أصحاب هذا النزوع، وتثنيهم عما هم فيه خائضون، فاتهم فلاسفة التصوف بالزندقة والبدعة والمروق عن الملة، مما استوجب إصدار فتاوى في حقهم تحل دمهم،

1- أورد صاحب المخطوط متنا لسيدي عبد الله الغزواني فصل فيه مراتب هذه السلسلة وأهم الحلقات والدوائر التي تكونها، معتبرا أنها تضم قطبا واحدا ويسمى أيضا بـ"الغوث" و"الجرس"، مقره بمكة المشرفة، ثم سبعة "تقباء" بالشام على عدد الأيام، واثنى عشر من "النجباء" بمصر على عدد الشهور، وأربعين رجلا من "البدلاء" بالمغرب، وأربعة "أوتاد" على أركان الأرض، إضافة إلى "الأولياء" و"الصالحين" و"الأخيار" الذين يوجدون في سائر الأقطار، وأن عدد الجميع ثلاثمائة وثلاثة عشر، وقيل أربعة عشر على عدد الرسل. نفسه، ص. 60.

2- عبد الرحمن (بن خلدون)، المقدمة، إضببط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة، مراجعة الأستاذ سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط. 3، 1996، ص. 615-616.

- سارة بنت عبد المحسن بن عبد الله (جلوي آل سعود)، نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، ط. 1، 1991، ص. 25.

3- ابن خلدون، نفسه، ص. 616.

وتبرئ الإسلام منهم، فنظمت في حق شيوخ التصوف وأقطابه حملات اعتقالات ومطاردات خطيرة، كان من نتائجها محاكمات مؤلمة ومروعة لبعض رموز هذا الحقل؛ كالحكم على محمد بن منصور الحلاج بالإعدام مصلوباً، لاعتقاده بالاتحاد والحلول¹، في حين حُكم على أستاذه أبي القاسم الجنيد ومن معه بمغادرة بغداد، بعدما كنتموا معتقداتهم، وأسروا أفكارهم التصوفية؛ مما أثر على هذا المجال لقرون مطولة². هذه التحولات الخطيرة في حقل التصوف الإسلامي عبر عنها ابن عطية من الناحية المصدرية بطبيعة المرجعيات والمتون التي اعتمدها في هذا المخطوط؛ إذ لم يعد التصوف السني المرتبط بالزهد والإيمان والمعاملات والعبادات الخالصة المتوازنة مطلباً قائماً؛ بل صار التصوف الفلسفي الغارق في الميتافيزيقا، والموغل في الغيبيات والمرتبطة بأسئلة عالم الغيب، هو الهدف المنشود؛ مما جعل المؤلف يمتح من نتاج أقطاب هذا التوجه، فاعتمد نصوصاً عدة لكل من أبي القاسم الجنيد، وأبي مغيث الحسين بن منصور الحلاج، وذي النون المصري ومعروف الكرخي، ووحيد الدين السهروردي، وأبي يزيد البسطامي، وعبد الكريم القشيري وابن عربي، وابن عطاء الله، والشيخ عبد القادر الجيلاني، ورابعة العدوية، وأبي حامد الغزالي، والشيخ عبد السلام بن مشيش، وتلميذه أبي الحسن علي الغماري الشاذلي، والشيخ محمد بن سليمان الجزولي، ومحمد زروق، وأبي مدين الجزائري، والشيخ الغزواني وغيرهم³؛ وفي المقابل لم ينس ابن عطية أن يضمن مؤلفه جملة من النصوص الفقهية التي تترجم الجانب الجدلي لعلاقة التصوف بالفقه الإسلامي، فاعتمد عدداً من المظان النظرية والشعرية للفقهاء والأئمة والمحدثين الذين أدلوا بدلوهم في هذا المجال؛ مثل ابن عباس، يحيى بن معاذ، الإمام مالك، أحمد بن حنبل، الشافعي، الترمذي، البخاري،

1- حول محاكمة الحلاج وقلته، انظر: طه عبد الباقي (سرور)، الحلاج شهيد التصوف الإسلامي، القاهرة، مطبعة نهضة مصر، ط. 2، 1981.

2- زكية (زوانات)، م.س. ص. 22.

3- مثل: ابن عبد البر، الشيخ بن البناء، بن النحوي صاحب المنفعة، بهلول المجنون، جعفر الصادق، الشيخ إبراهيم بن أدهم، أبو البقاء الرندي، سيدي عبد الوهاب الشعراني، بن عطية الجد، سيدي عبد الله بن طاهر، سيدي عبد الله العثماني، أبو الحسن علي الحارثي، أبو علي الرقاص، أبو علي الدقاق، الشيخ عبد الجليل القصري والشيخ الخروبي الطرابلسي.

مسلم، أبي داود، النسائي، القاضي عياض، الونشريسي، الأوزاعي، ابن الجوزي البغدادي، ابن تيمية وغيرهم¹، فضلا عن نصوص فلسفية لها صلة بالموضوع لكل من الشاطبي، وأبي البقاء الرندي، وأبي نصر الفرابي، وأبي حامد الغزالي. مما يظهر تنوع وثراء البيبلوغرافيا التي اعتمدها ابن عطية في هذا المخطوط والتي قام من خلالها بمسح مستفيض لخيرة ما أنتج في حقل التصوف الإسلامي والعلوم الأخرى المساعدة له والمكملة لبعض جوانبه؛ كالفقه والفلسفة والتاريخ وأدب المستملحات والنوادر وغيرها، الشيء الذي جعل هذا المؤلف ذا قيمة علمية وازنة، سيما وأنه يتضمن نصوصا اقتبست من كتب لم تعد موجودة، ويورد أخبارا هامة عن سنوات الولادة والوفاة بالنسبة إلى بعض الأعلام والتي اعتبرت عند بعض الدارسين حاليا بمثابة إشكالات قائمة؛ مثل ما يتعلق بسنة وفاة الشيخ عبد السلام بن مشيش، وتلميذه الشاذلي، وأخبار عن الجزولي والشيخ زروق، والغزواني وغيره، مما أعطى لهذا المخطوط قيمة فهرسية كبيرة؛ إذ يمكن عده في بعض جوانبه ضمن كتب الفهارس والطبقات والصلات، وهو ما يفيد عدم الاستغناء عنه بالنسبة إلى من أراد التأريخ لمشايخ التصوف وبعض رجالات الفكر.

4. ضوابط المشيخة والإيراد من خلال المخطوط

تحدث ابن عطية عن محتوى عمله، وقدمه على شكل تصميم عام ورؤية متكاملة لكافة مضامينه ومحتوياته على نحو مركز ومعبّر يمارس جاذبية كبيرة على قارئه، لكي يستمر في استقصاء أخباره، وتتبع ظواهره وقضاياه دون كلل أو تعب؛ إذ كلما قرأ فصلا إلا واشتاق للتمتع بالفصل الموالي، وكلما انتهى من باب إلا وازداد حماسا لاستقبال الباب الآتي. يقول المؤلف عن محتوى مؤلفه "وانحصر الكلام فيه في خمسة عشر بابا وخمسة وثلاثين فصلا". تدور كلها حول الوسائل الموصلة إلى المحبوب (الله)، وتتمحور حول الثلاثية الشهيرة للتصوف: الشيخ، المريد والطريقة،

1- مثل: أبو الحسن علي اليوسي، محمد بن ناصر الدرعي، أبو يوسف الفاسي وابن زيدان.

وما يلزم كل مكون من هذه المكونات من شروط ومحددات وضوابط، فصل فيها المؤلف تفصيلاً كبيراً، وحشد من أجلها عدداً هائلاً من النصوص والامتون النقلية والعقلية، وأثبتها عبر جملة من الوقائع والأحداث والتجارب الموضوعية.

أ- ضوابط المشيخة

بين ابن عطية أن المتصوفة شرعوا المشيخة المسندة المعنونة اعتماداً على حديث للرسول (ص) جاء فيه: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»¹؛ لذلك أكد الشيخ أبو يزيد البسطامي على أن "من أخذ هذه الطريقة عن شيخ متصل الإسناد كان في غاية القرب من رب العباد، ونال منه غاية المراد"². واعتبر السهروردي أن صحبة المريد للشيخ ضرورة صوفية لا غنى عنها لكي يبلغ مقصده، ويحصل على مراده، ويتجنب المهلكات، وصعوبات الطريق؛ لأن الشيخ لا تقتصر مهمته على الدلالة على الطريق؛ بل يتعدى ذلك ليصبح واسطة بين المريد وخالقه، ويمكنه من التزكية لديه³، ومن ثم فهو اعتبر المشيخة من أعلى مقامات التصوف؛ بل عدها بمثابة "نيابة النبوة في الدعاء إلى الله"⁴، تُوصل إلى الهداية والمكاشفات، وتؤدي إلى سواء السبيل، وتجنب التبع مواقع الأغاليط والأضاليل⁵. وهو ما رفع من منزلة الشيخ ورتبته لدى الأتباع والمريدين، الذين ترسخت في أذهانهم أقوال العارفين بشأن المشيخة، كقول أبي حامد الغزالي: "من لم يكن له شيخ يهديه، قاده الشيطان إلى

1- ابن عطية، م.س. ص. 7.

2- نفسه.

3- نفسه، ص. 82.

4- نفسه.

5- فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين (الرازي)، التفسير الكبير، ج. 1، ط. 3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، [د.ت.]، ص. 183.

طريقه"¹، وقول البسطامي: "من لا أستاذ له فالشيطان أستاذه"²، وقول الشعراني من لا شيخ له "لقيط لا أب له، دعي لا نسب له"³.

فصل المؤلف في شروط المشيخة وصفات الشيخ، موضحاً أن من أراد أن يتخذ لنفسه شيخاً، عليه أن ينظر لأهل وقته من له نسبة من الطريقة الصحيحة السليمة، ليقترن به على سبيل المشيخة، وعلى سبيل الأخوة، بعد أن يتحقق من أصوله ومرجعياته الإثنية والفكرية والمذهبية؛ لذلك قننت المشيخة بخمسة شروط: "ترك الطمع، والاعتناء بالله، وسهولة الدنيا عليه سقاء منه وزهداً فيها، واستعمال مكارم الأخلاق طبعاً وتطبعاً، والانتصاف في الحق"⁴. وذكر ابن عطاء الله أنه: "ينبغي لمن أراد سلوك طريق الاسترشاد، وسلوك آثار أهل الرشاد، أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق، سالكا للطريق، تاركا لهواه، راسخ القدم في خدمة مولاه، فإذا وجده فليمتثل ما به أمر، ولينته عما زجر، لأن الطرق إلى الله شتى لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً"⁵؛ لكنها كثيرة تحسب بعدد النجوم؛ لذا يجب التريث في اختيار الطريقة الأقوم والأقصر والأسلم، الموصلة إلى رب العالمين. وهذا الاختيار ينبني أساساً على التمييز بين شيوخ هذه الطرق الذين جعلهم الشيخ زروق ثلاثة أصناف، وفصل في كل صنف: "شيخ التعليم، وشيخ الترقية، وشيخ التربية. فأما شيخ التعليم بشروطه ثلاثة: تحصيل عند لباب المتكلم فيه، والقدرة على الإلقاء بلا تقصير، والإنصاف في الرد والقبول. وشيخ الترقية شروطه ثلاثة: البصيرة والنور والهمة العالية. وشيخ التربية شروطه ثلاثة: علم المعاملة ظاهراً وباطناً، والبصيرة النافذة، والتجربة الحاصلة"⁶. وأضاف ابن عطية أن شروط الشيخ خمسة، هي أن: "يكون عارفاً بالله وبطريقة الله،

1- أبو حامد محمد بن محمد (الغزالي)، كتاب إحياء علوم الدين، المجلد 2، دار الشعب، القاهرة، [د.ت.]، ص. 1474.

2- ابن عطية، م. س. ص. 8.

3- أحمد بن محمد (بن عجيبة الحسيني)، الفتوحات الإلهية، في شرح المباحث الأصلية، [تحقيق عبد الرحمن حسن محمود]، الأزهر الشريف، عالم الفكر، القاهرة، 1983، ص. 87.

4- ابن عطية، م. س. ص. 8.

5- نفسه.

6- نفسه، ص. 8-9.

تابعاً لسنة رسول الله، ناصحاً لعباد الله، راضياً بقضاء الله، واقفاً على حدود الله¹. إذن من توافرت فيه هذه الشروط يكون شيخاً كاملاً، ويوشك أن تفتح له أبواب الكشف، وتزاح أمامه الحجب، وتقرب إليه الصنائع والعلوم، ويقتمح مجال "الولاية" ويفوز بمراتب أهل العناية². أورد ابن عطية رواية أخرى للشيخ زروق تعتبر أن شروط الشيخ سبعة، هي: "علم معاملة أخلاق كرام، غناء بالله عن المخلوق، والسخاء، بصيرة نصيحة لسائر الأنام، وليست العصمة من شرطه، يكون بشراً، راضياً بالمقادير والأحكام"³. وأضاف أصنافاً أخرى من الشروط، وجعلها خمسة: "علم صحيح، وذوق صريح، وهمة عالية، وحالة مرضية، وبصيرة نافذة"⁴، وأكد على أن من فيه خمس خصال لا ينبغي الاقتداء به والعمل بطريقته، ولا تصح مشيخته: "سوء الخلق من غير مبالاة، والدخول فيما لا يعنيه، وإتباع الهوى في كل شيء، وإسقاط حرمة المسلمين، والإعراض عن الحق"⁵. وأوضح ابن البناء في "شرح المباحث" أن للشيخ ثلاث علامات إذا توافرت فيه استحق المشيخة، وارتقى إلى رتبة المقتدى به: أحدها استقامة ظاهرة بالتقوى وإتباع السنة في غالب أحواله، ثم لا يضررك ما ظهر عليه من نقص وإن ضر به نفسه. الثاني أن تسري فيك إشارته وتتسع بالمعنى عباراته. الثالث أنك تجد الراحة برؤيته والزيادة بطاعته والإعانة بتوجهه⁶.

بذلك يبدو أن المعرفة بطريق الله تعالى، وإتباع كتابه الكريم وسنة نبيه، إضافة إلى صدقه وحسن نيته، كلها شروط لاكتساب المشيخة؛ لكن الشيخ لا يشترط فيه العصمة والكمال "فالكملات في ثلاثة أشياء: العقل والمروءة والديانة. فمن كمل عقله، وتمت مروءته، وصحت ديانته، فذلك هو الشيخ الكامل الذي يقتدى به"⁷؛ بل الشيخ

1- نفسه.

2- نفسه، ص. 9.

3- نفسه، ص. 16-17.

4- نفسه، ص. 17.

5- نفسه، ص. 7.

6- نفسه.

7- نفسه، ص. 18.

يجب عليه أن يكون عارفا بما يصلح للناس، تماما كالفلاح الذي يدرك أحكام الأرض، وما نوع الغرس الذي تحتاجه، كالصانع الذي يعلم مصالح صنعته. وعلى الشيخ أيضا أن يكلم الأتباع والمريدين على قدر عقولهم ومنزلة معارفهم؛ مثل ما كان يفعل رسول الله (ص)، ويجب على صاحب الطريقة أيضا: "أن يكون عارفا بالخواطر النفسانية والملكية والربانية والشيطانية، ويكون عارفا بالأصول المنبعثة من هذه الخواطر"¹؛ مثل هذه الشروط لا يعرفها من هو مجنون أو مسكون، أو مجذوب، فالشيخ يجب ألا يكون مستغنيا عن العلم، وإنما عليه أن يكون طالبا له، ساعيا من أجله، واعيا بقوته ومكانته.

بناء على أنواع الشروط المتوافرة في كل شيخ من شيوخ التصوف، يتنوع المشايخ وتختلف مسالكهم وطرقهم، بحيث قسم ابن عطية الشيوخ إلى أربعة أقسام: "منهم صاحب الوظيفة، ومنهم صاحب تخصيص، ومنهم صاحب الخدمة، ومنهم صاحب الاسم الجليل الأعظم. أما صاحب الوظيفة خاطئ السلوك غارقا في بحر الشكوك. وأما صاحب التخصيص فهو الذي يلفظ الحسنات. وأما صاحب الخدمة فهو الذي يؤدي التبرك من غير إفادة. وأما صاحب الاسم الجليل الأعظم يقطع الطريق كلمح البصر، أو بما شاء من قدرة الله تعالى"²، وهو ما يعرف بطبقات الشيوخ، التي تنحصر في طبقة السالكين المجريدين، وطبقة المجاذيب المجريدين، وطبقة أصحاب السلوك المحقق بالجذبة، ثم طبقة المجاذيب المتداركين بالسلوك، وهي أرقى هذه الطبقات الصوفية.

وعموما يجب على الشيخ أن يكون من أهل العلم ما ظهر منه وما بطن، مشهودا له بذلك لدى عامة الخلق وخاصتهم، والعلم الظاهر هو ما يتعلق بقواعد الشريعة وأحكامها، وما يتصل به من معاملات، وأسئلة الناس في شتى القضايا

1- نفسه.

2- نفسه، ص. 19.

والمجالات. وهذا العلم يتقاسمه الشيخ مع باقي علماء الأمة، وحفظتها، وفقهاؤها؛ لكن علم الباطن يختص به لوحده دون غيره، وهو الذي يمنحه مرتبة المشيخة، ويعطيه صفة الذبوع والشيوع، ويجعله مقصدا للمريدين من الفجاج العميقة، والأصقاع النائية؛ لأن به يداوي علل مرضاه، ويشفي غليل عطشاه، ويبين الطريق لمن ابتغاه، دون انقطاع ولا تعطيل¹، كما على الشيخ أن يكون عاملا بعلمه، والمقصود بذلك أن يكون قدر ربي نفسه على الانقطاع عن الشهوات، وعاش مقامات المشاهدة بأحوالها وأحوالها، وشرب من نخب الذوق الروحي الذي يرتوي به كل من حل بمنازل السائرين" كتصحيح التوبة بشروطها وأركانها وتحقيق الورع والزهد والخوف والرجاء والتوكل والصبر والرضا والتسليم والمحبة والمراقبة والمشاهدة"².

يوازن العارفون بين الشيخ والطبيب من حيث الوظيفة والمهام، فكل منهما يشفي عليه، ويبحث له عن الدواء المناسب لدائه، ولا خير في طبيب لا يؤنس مريضه، ولا يداوي علته وسقمه، فكذا حال الشيخ يداوي مصابه ويبحث له عن الشفاء، فلا يقصده إلا أهل الحاجة، ولا يزوره إلا المرضى والملهوفون أصحاب المقاصد البعيدة، الراغبون في التخلص "من جميع العلل القليلة والوساوس الشيطانية والفسانية؛ لأن النفس أمارة بالسوء"³، فمثل هؤلاء العطشى من المريدين والتابعين، لهم حق معلوم على أشياخهم وأساتذتهم، وهذا الحق يتمثل في إعطائهم ما يليق بهم من الدواء الذي يحصل منه الشفاء من جميع العلل الظاهرة والباطنية، ويحقق سعيهم، ويبلغ مقاصدهم؛ مما يعني أن المريد الذي لا شيخ له "ويريد أن يعالج نفسه من غير علم ولا طبيب، فإنه يقع في الهلاك وهو لا يشعر"⁴. وأشار ابن البناء في "المباحث الأصلية" أن طب الشيوخ ليس بطب جالينوس، وإنما هو طب النفوس، فنظرة الطبيب بوصف الخبر، ونظرة الشيخ بشاهد الخبر، وأن من أراد الله به خيرا لا يفقهه في

1- عبد العزيز (الدباغ)، الإبريز، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، [د.ت]، ص. 228.

2- ابن عجيبة (الحسيني)، م.س. ص. 95.

3- ابن عطية، م.س. ص. 34.

4- نفسه.

الدين فقط؛ ولكن أيضا يوفقه لصحبة ولي من أوليائه الصالحين، وشيخ طبيب عارف بالأدوية والأعشاب يكون شفاء للمريدين¹. كما أورد ابن عطية حكاية لأبي الحسن الشاذلي في هذا الباب، مفادها أن الشاذلي قال: "كنت ذات يوم جالسا مع أستاذي مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه فسأله رجل من تلامذته، فقال له: ياسيدي وظف علي وظائف أعملها ولا أتركها إن شاء الله. فغضب الشيخ وقال له: أرسول أنا؟ الفرائض مفروضة والواجبات معلومة، والمعاصي مشهودة. فكن للفرائض حافظا، وللمعاصي رافضا، واحفظ قلبك من إرادة الدنيا، وحب النساء، والرياء، والجاه، وإيثار الشهوة، واقنع بما قسم الله لك، فإذا خرج لك مخرج الرضا فكن لله شاكرا، وإذا خرج لك مخرج السخط، فكن لله صابرا. وحبُ الله قطب تدور عليه جميع الخيرات، وأصل جامع لأنواع الكرامات، وحصون ذلك كله أربعة أشياء: صدق الورع، وحسن النية، وإخلاص العمل، وصحبة العلماء"². كل هذه الأمور مشروطة بصحبة شيخ ناصح، أو أخ صالح، وبضرورة مكاشفته ومصارحته من قبل مريده وعدم الكتمان عليه شيئا من القضايا الدينية والدنيوية؛ لأن الشيخ هو إمام المريد وقودته³.

فالشـيخ إمام المريد وقودته ونور مصباحه في دجا الظلام
فكن للشيخ مملوكا في رقه تتل ما ترجوه على التمام
ودع الاعتراض والزم الأدب ترقى مقام الصوفية الكرام⁴

لذلك أكد أهل هذه الصنعة على واجب محبة الصوفية، والتودد إليهم والتقرب منهم، واحترامهم، والتأدب معهم؛ لأنهم لا يدلون من جالسهم إلا على طريق الله تعالى، يقول الشيخ زروق: "إذا جالست عالما فجالسه بالرواية الصحيحة والعلم

1- نفسه.

2- نفسه، ص. 34-35.

3- نفسه، ص. 35.

4- نفسه.

المنقول، وإذا جالست عابدا فجالسه على بساط الزهد والعبادة، وإذا جالست صوفيا عارفا ووليا محققا، ففارق ما تعلم تظفر بالعلم المكنون وبصائر أجرها غير ممنون، لأن مجالسة الصوفية تنور القلب"¹.

ب- ضوابط الإيراد

عرف ابن عطية المريد عند أهل الطرق بأنه من لا تبقى عنده إرادة، وقيل لأبي يزيد البسطامي: "ما تريد؟ قال: أريد أن لا أريد؛ أي أريد أن تنقطع إرادتي حتى لا يبقى ما مرادي سوى الله تعالى"²، وقال سيدي محمد أمغار شيخ الشرفاء الأمغاريين: "لا يكون المريد مريد مريد حتى لم تبقى له إرادة. فالمريد يريد ما أراد الشيخ، والشيخ يريد ما أراد الله؛ لأن الشيخ حبل الله. فكل من تعلق به وصل"³. ومعنى ذلك أن المريد هو من أراد الإيراد، وبحث عن طريقة يسلكها بالأذكار والأوراد في حضرة شيخ "يمده بعلمه المستمد من الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار وحسن الاستقامة"⁴؛ لأن طريق معرفة الله مشروطة بواسطة ربانية تتم من خلال ولي من أوليائه الصالحين، أو شيخ من شيوخ الصوفية العارفين. وإذا لم يجد المريد مثل هؤلاء، عليه أن يستعين على الطريقة بأخ ناصح، شريطة أن ينصت إليه، ويحسن الظن فيه، وإذا لم يجده عليه أن يتلمس هذه الطريقة بالاعتماد على نفسه، والوقوف بباب الله، والتوكل عليه بمناجاته، والخوف منه، والتضرع إليه "فإن الله تعالى إذا علم منه ذلك يرشده ويهديه ويوفقه، إما على يد شيخ يلقيه به سرا، كان حيا أو ميتا، في نوم أو يقظة، يمدّه من ظهر الغيب، أو على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو يمنحه من غير واسطة"⁵.

1- نفسه، ص. 35-36.

2- نفسه، ص. 23.

3- نفسه، ص. 23-24.

4- نفسه.

5- نفسه، ص. 11.

يرفض طالب التصوف أخذَ طريقةَ ما من أفواه مَنْ هم ليسوا منها، أو تعلمها من كتب ومصادر ومؤلفات مهما كانت قيمتها العلمية، ويعتبر أن من أخذها من غير شيخ، وعمل على تلقينها للمريدين والأتباع فهو "طالب للرياسة والمنزلة وحب الجاه والرياء والسمعة، فإنه مهلك هو وكل من يتبعه على ذلك؛ لأن المريدين أصحاب علل وأمراض، ومتى كان الطبيب غير عارف بالأمراض والأدوية والأعشاب فذلك خيانة عند المحققين"¹؛ لهذا يجب على شيوخ التربية أن يكونوا تابعين لأشياخ معروفين وأقطاب معلومين، وإلا فإن مشيختهم وتربيتهم وأستاذيتهم تسمي باطلة، وتعد عند أهل الطرق لاغية غير مؤصلة، ومن لا أصل له لا يعتد به؛ "كالشجرة من غير غارس فإنها لا تثمر ولا ينتفع بها أحد، ويجوز لها أن تثمر كما يقع في بعض الأشجار التي تثبت في الجبال والأودية والأحجار من غير غارس؛ لكن لا يكون لها طعم الفاكهة الحلوة المغروسة على يد الغارس الذي ينظر في مصالحها من سقي وتلقيح وخدمة وغير ذلك مما يحتاج إليه من أنواع التصرفات، فكذاك المريد مع الشيخ؛ لأن الشيخ ينظر له في مصالحه الظاهرة والباطنة"²، ويمكن لمن لم يجد شيخا من الأشياخ أن يتخذ رسول الله (ص) شيخا له، أو أن يجعل شيخه من الجذب الإلهي؛ لكن هذا لا يجوز له أن يكون مصلحا لمريديه وأتباعه ومن أرادوا الاقتداء به؛ لأنه جاهل بتحقيق مقامات الطريق، وسبر أغواره، والتمكن من دقائقه وتفاصيله، "فحكمه كمن خطف من مصر إلى مكة في الهواء فوجد نفسه بمكة شرفها الله، فإذا سئل عن مناهل الطريق ومراحلها، ربما جهل منها شيئا، بخلاف من سافر مع الدليل"³؛ لكن صحبة الشيخ لا تكفي للوصول إلى المراد؛ بل يجب أن تكون مقرونة بالعمل الصالح، والسعي النافع، مادام الشيخ "ليس بيده جنة ولا نار، ولا دنيا ولا أخرى؛ بل عبدا مملوكا لا يقدر على شيء"⁴، فضلا عن كون التابع إن أراد أن يدخل في طريق

1- نفسه، ص. 11-12.

2- نفسه، ص. 12.

3- نفسه، ص. 12-13.

4- نفسه، ص. 14.

الصوفية عليه أن يتسلح بالتوبة والنية ألا يعود إلى ما كان عليه قبل اختياره لمصاحبة العارفين والسالكين؛ "لأن التوبة أصل كل مفتاح، وأساس كل بنيان، مثالها كالأرض والبنيان: فمن لا أرض له، فلا بناء له"¹. وتكمن أهمية مصاحبة الشيخ في كونه مطلعاً على الدروب الموصلة إلى حضرة الرحمان، المقربة إلى حوضه العذنان، من غير الثقات ولا دوران، فهو المرشد الأمين الذي لا تقهره زوابع الفيافي الهوجاء، ولا أمواج البحار الرعناء، متسلحاً بالتربية والهمة والصبر والجلد والاحتساب، حتى يصل إلى بر الأمان "فمن لم يسر معه وقعد في مكانه، فهو لاعب لا تنفعه رفقة"²؛ وبذلك صارت أصرة التصوف أوثق من قرابة الدم، وشيخ الطريقة أنفع من الوالدين وأهم منهما؛ لأن: "شيوخ التربية آباء في الدين ووصلة للعبد بينه وبين رب العالمين. فإن نسبة الإفادة أنفع من نسبة الولادة، ولذلك قال أئمة الطريق: والد الدين أنفع من والد الماء والطين"³؛ مما يبين أهمية الطريقة وما لها من شرف وعزة، وما أحاط بها من مكروهات وآفات، وما يتطلبه الوصول إليها من عقبات وصعوبات؛ إذ "لا يسلكها إلا من هو شجاع مقدام بتوفيق الإله المالك العلام"⁴؛ الشيء الذي جعل شيوخ الطريقة يستحقون من مريدتهم كل التبجيل والاحترام والتفاني في خدمتهم، والاستجابة إلى أوامرهم، والخضوع لهم، والإخلاص إليهم في محبتهم، وتعظيمهم لنيل برهم وحرمتهم، والدخول في حزب النبي (ص)، والانفلات من مكائد الشيطان الذي يوسوس إلى المريد الراغب في محبة المشايخ، والانحياز إلى أهل الملة والدين، "فيقول له مالك ولهذا إنك لست من أهل هذا الشأن. أما ترى قلبك محشوا بحب الدنيا وأنت متورط بالأسباب. فمتى تستطيع محبتهم ومرافقتهم"⁵.

1- نفسه، ص. 15.

2- نفسه، ص. 14.

3- نفسه، ص. 14-15.

4- نفسه، ص. 16-15.

5- نفسه، ص. 16.

أُطر الإراد - كما المشيخة - بعدة شروط ومحددات لا يمكن تجاهلها؛ بل لا بد من احترامها والالتزام بمتطلباتها وضوابطها؛ مثل التجرد من الشهوات وصفات النفس والعقل، والتحول إلى صفحة بيضاء يمكن للشيخ أن يخط فوقها ما يشاء من رسومات وجداول لفك شفرات المستغلقات، والنفوذ إلى عالم الطلاسم والمبهمات، كاغتسال المريد من أعماله قبل المثل بين يدي شيخه الذي يعد مقدمة "لنيل الشراب الصافي من بحر مدده الوافي"¹، ثم مبايعته لشيخه وما يتخللها من طقوس منها الانحناء أمامه، والحبو نحوه، والجثو على الركبتين، وتقبيل يده والمسح بها على الرأس، ناهيك عن تعهده بالمحافظة على أدب صحبته، التي بها يتم له السير، والوصول إلى نيل الأماني والمقاصد، ثم هناك شرط لبس الخرقة الصوفية التي تباركها يد الشيخ بوضعها على جسد المريد" فيلبسه الخرقة إظهاراً للتصرف فيه، فيكون لبس الخرقة علامة التفويض والتسليم"²، وما يتبع ذلك من مداومة على حلقات الشيخ، ومرافقته في رحلاته وسكناته، واحترامه وتوقيره، وعدم الكلام في حضرته، وتجنب النظر إليه، والإعراض عن مجادلتة ومخالفته ظاهراً وباطناً³، زيادة عن التذلل إليه والإحساس بالدونية أمامه؛ إذ لا يحق له أن يشاركه لا في الأكل، ولا في النوم، ولا ببسط سجادته أثناء حضوره إلا بإذنه⁴، بل المريد أو التابع أو التلميذ عليه أن يلتزم تجاه شيخه بالطاعة المطلقة، التي تصل إلى حد حجب الملكات، وقتل الأحاسيس والجوارح التي قد تكون لها ردود فعل غير محمودة من قبل صاحب الطريقة، ولذلك على المريد أن يكون مع شيخه "كالميت بين يدي غاسله، أو كالبهيمة المملوكة تحمل ما حُمِّلَت ولا تبالي إذا أهملت"⁵، مما يعني أن التابع الصادق الذي يريد صحبة الشيخ

1- ابن عجيبة الحسيني، م. س. ص. 163.

2- السهروردي، م. س. ص. 95.

3- أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان (القشيري)، الرسالة القشيرية في علم التصوف، دار الكتاب العربي، بيروت، 1975، ص. 182.

4- عبد القادر بن أبي صالح (الجيلاني)، الغنية لطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية، ط. 3، ج. 2، القاهرة، 1956، ص. 167.

5- ابن عطية، م. س. ص. 9-10.

بإخلاص، عليه أن يسلم له نفسه، ويكون معه" كالطفل مع والدته كلما دفعته عنها، رجع إليها"¹، ويعتقد دوماً في كماله، ويحسن الظن فيه، ويتكتم على أفعاله ما حسن منها وما ساء، وعليه احترام زوجاته وإمائه فلا يتزوجهن، فضلاً عن الالتزام بالحياء وعدم الفضول بالنظر إلى الشيخ؛ لأن المشايخ كانوا من قلة نظرهم إلى جلسهم لا يستطيعون الإخبار عن أوصافه إذا طلب منهم ذلك؛ لذا أكد الشيخ أبو علي الدقاق أن المريدين ينبغي عليهم أن "يكونوا بين يدي أسيادهم كأنهم لصوص ورد عليهم السلطان، فهم من العقوبة خائفون لا خوف ظلم، لكن خوف تعظيم وإجلال"²، وعليهم أيضاً أن يتحلوا بحسن الاستماع والسكوت عند حضور الشيخ إلا عند ذكر الله، لأن الصمت يكسبهم صفوة المحبة، ويلبسهم ثوب الوقار، ويقيهم من الزلل ويعفيهم من الأخطاء، فطول السكوت يورث الكرامة، وكثرة الكلام تورث الندامة؛ كما جاء في وصية علي بن أبي طالب رضي الله عنه "يا بني العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله، ومن كثر كلامه كثر خطاياه"³، ولذلك قال الناظم:

إن كان يعجبك السكوت فإنه قد كان يعجب قبلك الأخيار

فإن ندمت على السكوت مرة فقد تندم على الكلام مراراً⁴

وعلى المرید أن ينوي من مصاحبته لشيخه الوصول إلى المقامات الربانية، لا إلى المراتب الدنيوية⁵، وهو ما يفرض عليه التجرد من الشهوات، والامتناع عن الزواج، وتجنب كل السبل المؤدية إلى زينة الحياة المادية؛ كالمال والبنين والأنعام والخيول المسومة.

أمام كل هذه الالتزامات، حقت للمرید جملة من الحقوق على شيخه، منها: أن يدلّه على الطريقة بإخلاص وحقيقة، يأخذ بيده بلين ورفق دون تعسف ولا قسوة،

1- نفسه، ص. 10.

2- نفسه، ص. 39.40.

3- نفسه، ص. 40.

4- نفسه.

5- عبد العزيز (الدباغ)، الإبريز، م. س. ص. 219.

وألا يكثر عليه في عمليات الاستبطان والاستضمام، وأن يكون كالآسي لا يعرف فقط الدواء الذي يصلح للداء؛ ولكن يعرف أيضا كيفية استعمال هذا الدواء وعدد مقدار الجرعات التي تصلح لحالة المريض، حتى لا ينقلب العسل إلى علقم.

خلاصة واستنتاج

يمكن الخروج بجملة من الاستنتاجات المتعلقة بثالوث التصوف: الشيخ، المريـد والطريقة، منها:

- ✓ مازالت مخطوطات علم التصوف في حاجة ماسة إلى التحقيق والتخريج والدراسة والتحقيق إثراء لهذا الحقل، وإغناء لهذا العلم.
- ✓ المشيخة الصوفية ليست عبثية؛ بل محكومة بشروط وضوابط صارمة، يسلكها السالكون، ويتبعها التابعون أملا في الحصول على المراد وبلوغ المقصد.
- ✓ المشيخة عند أهل التصوف مقامة تدرك بطرق شتى، وكل شيخ يختار وفق طريقة خاصة.
- ✓ المشيخة عماد التصوف وركيزته الأساس، ولولا ذلك ما كان المريـد يبحث عن الشيخ من المغرب إلى المشرق، أو العكس.
- ✓ المشيخة تعلو فوق السياسة والمجتمع والمال، وهي حبل ممدود بين السماء والأرض كما يعتقد ذلك أصحابها والعاملون بها.
- ✓ الجزولية طريقة علم وعمل وجهاد في سبيل الله.
- ✓ ابن عطية جزولي الطريقة بإسناد واضح وصحيح.
- ✓ اعتبار السند والعننة منهجا في الكتابة بالنسبة إلى من يشتغل بعلم الباطن، وبذلك يلتقي التصوف مع علم الحديث؛ لأنهما معا يعتمدان على السند والاتصال المعنعنين رجل عن رجل، إثباتا للحقائق ومنعا للمزلق والمبطلات.

الببليوغرافيا

- محمد (ابن عطية السلاوي)، "سلسلة الأنوار في طريق السادات الصوفية الأخيار" مخطوط عثرنا على نسخة منه في تافيلالت عند أسرة الحاج محمد خير الله.
- نسخة ثانية من المخطوط موجودة في الخزنة الوطنية بالرباط تحت رقم 2458 د، وعدد أوراقها 105 ورقة.
- أبو عيسى محمد المهدي بن أحمد بن علي (الفاسي)، تحفة أهل الصديقية بأسانيد الطائفة الجزولية والزروقية، مخطوط توجد نسخة منه في الخزنة الحسنية في الرباط، بالمملكة المغربية، تحت رقم: 13420، ونسخة أخرى بالخزانة الوطنية بنفس المدينة، تحت رقم: 2990 ك. وعدد أوراقها 40 ورقة.
- عبد الحفيظ بن محمد الطاهر (الفاسي العمري)، الترجمان المعرب عن أشهر فروع الشاذلية في المغرب، مخطوط، توجد نسخة منه في الخزنة الحسنية في الرباط، بالمملكة المغربية، تحت رقم: 3252.
- أحمد (زروق)، السلسلة الزروقية، مخطوط توجد نسخة منه في الخزنة الحسنية في الرباط، بالمملكة المغربية، تحت رقم: 4354.
- محمد العربي بن الطيب (القادري الحسني)، الطرفة في اختصار التحفة بأسانيد الطائفة الجزولية والزروقية، مخطوط توجد نسخة منه في الخزنة الحسنية في الرباط، بالمملكة المغربية، تحت رقم: 10904.
- أبو الحسن (الهجويري الأفغاني)، كشف المحجوب لأرباب القلوب، مخطوط توجد نسخة منه في الخزنة العامة في الرباط، بالمملكة المغربية، تحت رقم: 1838 ك، ضمن مجموع، وعدد أوراقها 39 ورقة، مرتبة من 1 إلى 76. مجموع هذه الأوراق هو 148 ورقة.
- زكية (زوانات)، ابن مشيش شيخ الشاذلي، الدار البيضاء: [ترجمه من الفرنسية إلى العربية أحمد التوفيق]، مطبعة النجاح الجديدة، 2006.

- ابن الزيات (التادلي)، التشوف إلى رجال التصوف، الرباط: [قام بدراسته وتحقيقه أحمد التوفيق]، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1984.
- ابن الطواح (التونسي)، سبك المقال لفك العقال، [قام بدراسته وتحقيقه جبران محمد مسعود]، درا الغرب الإسلامي، 1925.
- أبو عبد الله محمد بن سليمان (الجزولي)، دلائل الخيرات، الدار البيضاء: مطبعة دار النجاح الجديدة [يدون تاريخ الطبع].
- عبد السلام (الغرميني)، دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار صلى الله عليه وسلم لسيدي أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي، ط. 2000، [يدون مكان الطبع].
- نور الدين (عتر)، منهج النقد في علوم الحديث، دمشق: دار الفكر، 1992. ط. 3.
- عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005. ط. 1.
- عبد الرحمن (بن خلدون)، المقدمة، [ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة، مراجعة الأستاذ سهيل زكار]، بيروت: دار الفكر، 1996، ط. 3. - سارة بنت عبد المحسن بن عبد الله (جلوي آل سعود)، نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام، جدة: دار المنارة للنشر والتوزيع، ط. 1، 1991، ص. 25.
- طه عبد الباقي (سرور)، الحلاج شهيد التصوف الإسلامي، القاهرة: مطبعة نهضة مصر، 1981. ط. 2.
- فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين (الرازي)، التفسير الكبير، بيروت: دار إحياء التراث العربي، [د.ت.]. ج. 1، ط. 3.
- أبو حامد محمد بن محمد (الغزالي)، كتاب إحياء علوم الدين، دار الشعب، القاهرة، [د.ت.]، المجلد 2.

- أحمد بن محمد (بن عجيبة الحسيني)، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، [تحقيق عبد الرحمان حسن محمود]، القاهرة: الأزهر الشريف، عالم الفكر، 1983.
- عبد العزيز (الدباغ)، الإبريز، القاهرة: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، [د.ت].
- أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان (القشيري)، الرسالة القشيرية في علم التصوف، بيروت: دار الكتاب العربي، 1975.
- عبد القادر بن أبي صالح (الجيلاني)، الغنية لطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف والأدب الإسلامية، القاهرة: 1956. ط.3، ج.2.